

الباب الرابع

الرومانسية في شعر جبران خليل جبران

١ - تأثيرها في شعر جبران خليل جبران

فيبدو تأثير الرومانسية بشخصية جبران بالطبيعة. كما قال خليل حاوي "فالطبيعة عند جبران أشياء كثيرة تسود عليها روح المحبة الشاملة فتبدو مظاهرها في كل الأشياء الطبيعية"^١.

وفي الوقت نفسه، بخبر يوسف الحويك - رقيق صفه في مدرسة الحكمة - من ادّعائه بأن جبران خليل جبران قد درس شكسبير والرومانسيين الإنكليز في بوسطن^٢. وأنه تعرف منذ عهد مبكر بأمرسون والهندوسية والبوذية، وأنه بعد ذلك قرأ بلاتك وأبدى اهتماماً بالتصوّف الإسلامي. فلا يعقل ان يكون البوذية،

^١ خليل حاوي، جبران خليل جبران، اطاره الحضاري وشخصيته وإثاره، ص: ١٣١.

^٢ خليل حاوي، جبران خليل جبران، اطاره الحضاري وشخصيته وإثاره، ص: ٩٣-٩٤.

بما فيها من روح اللاعيف ونكران الذات الزهدى والتكشف الصارم، قد أثرت في نزعات الهدم التي عرف بها جبران. والقول نفسه قد يصدق على المتصوفة المسلمين، وهم يؤكّدون على الزهد بوصفه سبيلا ضروريا إلى تطهير الذات، وهو يدعى فناء الذات في الإنسان^٣.

ولهذا، كان نظر جبران لذلك، يعتمد على فلسفة العاطفة والقلب والحرية الفكرة، وكله جوهر الشعر الومانسية التي كانت هي ثورة على سلطان العقل وتمردا على القيود القديمة الكلاسيكية.

كان جبران خليل جبران (كما سبق) أحد من بعض الشعراء الذين يحاولون الخروج على تقاليد الشعر العربي القديم.

^٣ خليل حاوي، جبران خليل جبران، اطارد الحضاري وشخصيته وإثارة، ص: ٢٥٣-

كما قالَ عمر الدسوقي: "ولقد تفاوتوا في محررهم
وثورتهم على تقاليد الأدب العرب القديم وعلى اللغة فكان
المهاجرون إلى أمريكا الشمالية أشد ثورة من سواهم ولا
سيما أبناء الرابطة القلمية التي أسست في نيويورك سنة
١٩٢٠ وعلى رأسهم جبران، ونعيمة، وعريضة، وأبو
ماضي ورشيد أيوب ممن تأثروا إلى حد ما بالأدب الغربي
ولا سيما بالأدب الرومانسي الذي يعزز التربة الفردية،
والتعبير عن الذات وخلجات النفس في يأسها ورجائها
وحزنها وفرحها".^٤

واعلم أن الخاصية الأساسية التي تميز إيقاع
جبران وبناء أسلوبه تطابق الأسلوب التوراني ^٥ في العربية
وربما في اللغات آخر أيضا.

^٤ عمر الدسوقي، في الأدب الحديث" ص: ٢٣١

^٥ التوراني هو أحد من فضائل اللغة الإنسانية في العربية عند رأي مكس ملر (MAX MULER)

فذلك بأن الموقف العام نفسه قد اشاعه كتاب آخرون من معاصري جبران الأكبر من سنا، امثال فرح انطون، ونجيب جداد، وأمين الريحاني وسواهم ممن يقولون عنهم شهرة. على انهم كانوا مفكرين ومصلحين عمليين، في حين ان جبران كان إنفعاليا ورومانسيا. كقال عمر فروخ "ان جبران نفسه يقول عن نفسه: ((انا لست مفكرا، أنا خالق أشكال))"^٦.

وخلاصة القول ان تأثير الرومانسية قوي في شعر جبران خليل جبران الذي يعتمد الخيال الطليق والعاطفة، وهما من ميزات الرومانسية، فجعلت اسلوب جبران قصائده النثرية مختلفا للغاية عن الأسلوب الذي اتبعه كتاب النثر في الادب العربي القديم وكتاب النهضة الكلاسية في القرن التاسع عشر.

^٦ عمر فروخ، المنهاج الجديد في الادب العربي، الجزء الثاني، ص: ٣٠٤.

٢- خصائصها الموجودة في شعر جبران خليل جبران

إن خصائص الرومانسية (كما سبق) تعتمد على العاطفة والقلب لأنها منبع الالهام وموطن الشعر. وتقديم الخيال على العقل. والتجاء الى الحلم، وطلب الحرية، وغلبة الاحساس الغامضى على الفكرة والواضحة، والتعبير عن تأزم الفكر. وبروز الفردية، واليتمسك بالدين وحب الطبيعة.

كان اول بحث أثر من اثار جبران خليل جبران في هذا الفصل هو كتابه "الاجنحة المتكسرة"، هو شعر بكل ما في الكلمة من معنى. وتظهر مسودات هذا المؤلف الأربعة، المحفوظة متحف جبران، ان التغييرات التى أجراها تشير بوضوح الى عزمه على اقضاء ما تبقى في القصة من ظلال النثرية، والارتفاع بالأسلوب الى مستوى من الشعرية المغالية. وهذا مما استتبع، في ما يبدو، إسقاط العناصر غير الشعرية من التجربة الشخصية

التي كان يصورها وهي حبّ الأول، وإضافة مواقف عديدة مفرطة في الشاعرية سبق لنا ان وصفناها. فهو يصوّر شخصية سلم كرامة (SELMA KARAMY)، بطلق القصة، على نحويين طموحه الى المرأة المثالية القادرة على منحه عطف الأم في الوقت نفسه الذي تكون فيه أختا لروحه، وليس المقصود بها أن تكون صورة واقعية صادقة لحالا ظاهر، موضوع حبّ الأول في واقع حياته. كذلك يتبدّى إضفاؤه الصفات الشاعرية على سلمى في وصفه جمالها بأنه ((كان غريبا كالحلم او كالرؤيا او كفكر علوى)). وهو يجود عليها، في سبيل الإلتقان، بكل مايمكن تصوّره من صفات الكمال الجسدى والروحى. وتبرز الكابة من بين تلك الصفات بروزا ظاهرا للغاية^٧. ولنا كذلك ان نقتبس الوصف التالي لحزن سلمى:

^٧ خليل حاوى. حبران خليل حبران، اظاره الحضارى وشخصيته واثاره، ص: ٢٧٧.

"رأيت تلك الاجفان التى كانت منذ ايام قليلة
تبتسم كالشفاه وتتحرك كأجنحة الشحرور قد غارت
وجمدت واكتحات بخيالات التوجع والألم"^٨.

والواقع أن "الأجنحة المتكسرة" حكاية حال رجل
(حكاية حال جبران نفسه) يرويها مرة بصيغة المتكلم
ومرة بصيغة الغائب. وفي هذه القصة يبسط جبران عددا
من آرائه التى نجدها في سائر كتبه:

- (أ) الكلام على الحياة الروحية والسعادة الروحية.
(ب) الحملة على ظلم البيئة (الناس والشرائع والقوانين)
لأولئك الذين يحبون أن يحيا حياة منعقة من تلك
الشرائع والقوانين. وخصوصا قوانين الزواج. ولكنه
يقدر الأمومة.

^٨ خليل حاوي، جبران خليل جبران، اضاره الحضارى وشخصيته وثاره، ص: ٢٩٠.

(ج) حملة على رجال الدين ونقمة عليهم لأنهم لا يحيون
كما يطلب الدين منهم ثم هم يستغلّون نفوذهم
الديني لنيل رغبات دنيوية^٩.

ربّ قائل إن هذا الكتاب من الصور كان يمكن
إدخاله الى العربية على يد أى شاعر تشرب مدرسة
الرومانسية الاوروبية، ولكن الأمر عندنا لا يبدو بمثل هذه
البساطة: ففي اعتقادنا أن شاعرا كهذا لا بدّ له من النحول
الفعلي بفضل الرومانسيين، فضلا عن تعرفه بهم.
وبالإضافة الى ذلك عليه ان يكون صاحب مؤهبة فذة في
اللغة وعين رسّام تلتقط اسرار الأضواء والظلال.

وضع جبران كتاب "النبي" باللغة الإنكليزية.
والذى يبدو أن جبران أراد من كتاب "النبي" أن يضع
جميع آرائه للقارئ باللغة الإنكليزية في كتيب واحد.

^٩ عشر فروخ، المنهاج الجديد فى الادب العربى، الجزء الثانى، ص: ٣١٧.

لاريب في أن كتاب النبي تلخيص لأراء كثيرة
وثنية وميحية وإسلامية وطبيعية وصوفية ساقها جبران
كلها في شكل يقرب من أن يكون قصة تتألف من جمل
قصار تؤلف فصولا متقطعة ... من هذه الفصول العطاء
الغذاء، العمل الفرح، الترح، المساكن، الثياب، البيع
والشراء، الجرائم والعقوبات، الشرائع، الحرية ...^{١٠}
ويشكل الاعتقاد بالذات الكبرى أساس حكمة
النبي وجوهرها، على ما يظهر في خطبه. فتلك الذات هي
التي تكلمه وتكلمه به، وتنشط حين تكون ذات نفسه
هامدت خاملة. ومن ثم فليست هي ملاك الرب، وليست
إلها شخصيا شبيها بإله الأنبياء القدامي.^{١١}

كان جبران منذ البداية، يقوم بدور بني، فإنه لم
يصرح بذبك فعلا حتى ١٩١٤، حين قال في قصيدة
جعلها خاتمة (الدمعة وابتسامة): "جئت لأقول كلمة

^{١٠} غفر فروح، المنهاج الجديد، في الأدب العربي، الجزء الثاني، ص: ٣٣٣.

^{١١} خليل حاوي، جبران خليل جبران، الطارء الحصارى ومنهجيته وثرته، ص: ٣٤٩.

وسأقولها وإذا ارجعنى الموت قبل أن الفظها يقولها الغد
لا يترك سرا مكنونا فى كتاب اللانهاية"^{١٢}.

وفي القصيدة النثرية "اغنية الجمال"، يقول جبران
في الجمال: "انا حقيقة ايها الناس، انا حقيقة وهذا خير ما
تعلمونه"^{١٣}.

ويقول في قصيدة نثرية أخرى، عنوانها (الارواح
المتسردة): "إلى الروح التى عانقت روحى. إلى القلب
الذى سكب أسرارهِ فى قلبى إلى اليد التى اوقدت شعلت
عواطفى أرفع هذا الكتاب"^{١٤}

وأعلم أن جبران يغير لهجته مرتين في القصيدة:
أولهما ليؤكد أن الآلهة تبدع من هذه النكبات معرفة جميلة،
يشترئها الإنسان بدموعه، ودمه وملكه، والثانية في نهاية
النشيد، إذ يقول يتعجب شديد:

^{١٢} خليل حاوي، جبران خليل جبران، الطارء القصصى والقصيدة والطارء، ص: ٢٤٧.

^{١٣} خليل حاوي، جبران خليل جبران، الطارء القصصى والقصيدة والطارء، ص: ١٨٦.

^{١٤} Khalil Gibran, *Musik Dahaga Jawa*, hal 24

"على أننى وجدت هذه النكبات المخيفة، والرزايا الهائلة ألوهية الإنسان واقفة كالجبار تسخر بحماقة الأرض وغضب العناصر".

ففي هذه القصيدة يتكلم الإنسان عن مصيرة بما يلي:

"شاهدت وسمعت كل ذلك (كل ما قيل وحدث في التاريخ) وأنا طفل، لسوف اشاهد واسمع اعمال الشبيبة ومايتها، لسوف أشيخ وأبلغ الكمال وأرجع الى الله. أنا كنت منذ الأزل، وها أنا ذا وسأكون الى آخر الدهر، وليس لكياني انقضاء"^{١٥}.

إن جبران في هذه القصيدة، أنجح منه في أية قصيدة آخر بإعطائه أساساً نظرياً صالحاً لتأكيد ألوهة الإنسان. إنه يفيد هنا من نظرية التقمص فائدة أعظم منها في قصة

^{١٥} خليل حاوي، جبران خليل جبران، اطواره الحضاري وشخصيته واثاره، ص: ١٧٤-١٧٥.

"رماد الأجيال" وفيها يسعى الى ما هو رومانسي وغريب وعجيب، فيأتي بقصة حب ذات نهاية سعيدة.

واذا نظرت الباحثة الى الآراء المذكورة فرأت أن شعر جبران له خصائص الرومانسية وهي:

١- استعمل جبران الالفاظ الفصحية وسهلة لأن في كتابته كلمات غير متنافرة

٢- استعمل المعانى الدقيقة والاخليلة والعبارات العديدة الطويلة التى نفيذ الجمل والبدعة

٣- استعمل جبران الاساليب المختلفة فى الكتابة ومنها الأسلوب الخيال والمعانى الدقيقة والأسلوب البديع والمعانى العالية التى لاتفهم إلا بالتفكير العميق.